

المحاضرة الثامنة: مقارنة البحث التقديري لبناء السلم

تناقش هذه المقاربة إشكالية كيف يمكن لعالم بعد الحرب في الدول الخارجة من النزاعات أن يكون مختلفا في ضوء إمكانية الإبقاء على الأمل حيا ورسم طريق أكثر وضوحا وتوكيدا لمستقبل أفضل بإيجاد طرق محددة لبناء السلم.

ماذا تعني المقاربات الإيجابية؟ هي مجموعة من الأفكار، والنظريات والنشاطات التي تعمل باتجاه إحداث تغيير في العلاقات والمنظمات والمجتمعات وغيرها من الأنظمة الإنسانية. والافتراض الأساسي لمعظم المقاربات الإيجابية هو أنه ضمن الأنظمة الإنسانية توجد أشياء تعمل جيدا أو عملت جيدا في الماضي، وأن هذه الأشياء يمكن تحليلها وبناء أسس عليها من أجل تصور التغيير والتخطيط له وتنفيذه. وتعتمد هذه المقاربة غالبا على التحقق من جمع المعلومات والانتباه بشكل خاص إلى كيفية تأطير الأسئلة، والسعي من أجل اكتشاف متى وكيف تعمل الأشياء على أفضل وجه؟

لذلك تمتلك المقاربات الإيجابية اتجاها ينظر إلى الأمام في إحداث التغيير، من خلال التركيز على رؤية وإنتاج الصورة الإيجابية للمستقبل المختار. فهي تثمن التعددية كمصدر للإبداع والابتكار كذلك توفر المقاربات الإيجابية أدوات لجمع الناس من أجل اكتشاف القيم والأهداف المشتركة ومن أجل المساعدة في وضع خطة لمجموعة تعددية يمكنها أن تعمل بشكل مشترك من أجل مستقبل مشترك. وهي تعزز أيضا توزيع الثروة عبر مجمل النظام مانحة بذلك الفرص لأي طرف معني من أجل أن يتقدم لدور قيادي حسبما تملّي الظروف.

السمات العامة للمقاربات الإيجابية هناك عدد من السمات العامة التي تتفاسمها معظم المقاربات الإيجابية نحو التعبير الاجتماعي:

- ✓ جميعها تشارك في التوجه نحو القوة والإمكانية الإيجابية للبشر، وتضع تركيزها التحليلي على تلك الإمكانية الإيجابية بهدف حشدها بشكل أكثر فعالية.
- ✓ هناك تركيز على أهمية صنع المعنى- والذي يتم عادة بشكل جماعي وضمن ارتباط مع الآخرين في النظام.
- ✓ هناك تركيز على استنباط القصص وروايتها كوسيلة لنقل الحكمة الشمولية والمعرفة والمعنى.
- ✓ هناك تركيز للانتباه على الموارد الفطرية للتغيير- تلك القوى والقدرات والممارسات والخبرات الموجودة أصلا في كل نظام.
- ✓ هناك تركيز على إطلاق تصورات مرئية إظهار أمثلة إيجابية .
- ✓ النية تتجه نحو التحفيز والتعبئة للحرك

المقاربات الإيجابية لبناء السلم من خلال البحث التقديري، هو عبارة عن منهج إيجابي للتغيير يشمل تحريك الأطراف المعنية داخل نظام معين عبر عملية من أربع مراحل هي الاستكشاف، الحلم، التخطيط والتنفيذ (أو الهدف) وهي عملية تعرف بالإنجليزية بدائرة المراحل الأربع D4 (الاكتشاف والتسليم Discovery and Delivery، الحلم Design، الحلم Dream) ترتبط بالقوى والتجارب المعاشة داخل النظام، وتخلق رؤية مشتركة للمستقبل وتحشد من أجل تحرك خلاق باتجاه تحقيق هذه الرؤية، ولقد ولدت عملية البحث التقديري وسط حقل التطوير المؤسسي في أواسط حقبة الثمانينات من القرن العشرين وتستخدم بشكل واسع عبر العالم اليوم، في الأعمال التجارية والمجتمعية والتطوير الدولي ومؤسسات التغيير الاجتماعي بجميع أشكالها.

وقد استخدم بناؤو السلم الذين يتعاملون بالبحث التقديري معظم المراحل في بعض الأحيان وجزءا منها في أحيان أخرى، وأكثرها شيوعا تلك التي تتناول المقابلات التقديرية في مرحلة الاستكشاف. والمقابلات التقديرية تشكل نوعا من الممارسة التي تستخدم الأسئلة الإيجابية للاستعلام من الأطراف المعنية حول العناصر الإيجابية الجوهرية في حياة

النظام. والعناصر الإيجابية الجوهرية هي الأساس في منح الحياة وتعزيز السلم وإيجاد الموارد والقدرات والخبرات وسط نظام النزاعات، كما أنها الأساس الذي يمكن اعتماده لبناء السلم. وتشمل هذه العناصر القيم والفصائل والحكمة والشمولية والمعرفة والطقوس والتقاليد، والممارسات والإرشادات الثقافية والدينية المتأصلة التي تقوم بتشجيع التسامح والتعددية والعدالة والسلم إضافة إلى التجارب المعاشة للناس والجماع التي تختزنها روايات هؤلاء عن الشجاعة والقوة والثبات والتراحم والتعاون في الحياة مع الخلافات وتشمل كذلك آمالهم وأحلامهم ورؤاهم لمستقبل أفضل. إنها هذه القوى الخيرة التي يقوم منهجيو التغيير الإيجابي بنبشها من أجل استلهام القوى والدفع نحو التحرك.

وأحيانا يقيم صانعو السلام هذه العناصر الإيجابية الجوهرية عبر أشكال أخرى من العملية التقديرية (بالإضافة إلى الاستعلام والتحقيق) مثل البحث العلمي، والحوار والتعامل مع الطقوس وغيرها من التعبيرات الفنية. وعلى طريقة البحث التقديري، تقف تلك العمليات التقديرية وحدها كنوع من التدخل أو ربما يتم دمجها مع أدوات أخرى لحل النزاعات وبناء السلم، بم فيها مقاربات متعلقة بالتوجه نحو المشكلة.

نحو نظرية وممارسة المقاربات الإيجابية لبناء السلم: شهد حقل بناء السلم وحل النزاعات تطورا هائلا خلال العقود الثلاثة الماضية، وقد منحت المئات من البرامج الأكاديمية شهادات في هذا الحقل، وتجرى حاليا عملية تهدف إلى إعطاء صفة المهنية والاحتراف لمثل هذا الحقل مع انخراط الآلاف من المنظمات غير الحكومية (NGOs) وأصحاب المهن المستقلين في العمل اليومي الساعي إلى حل النزاعات بين الأشخاص وبين المجتمعات.

إضافة إلى ذلك، تحاول المئات من الهيئات والمبادرات الحكومية وبين الحكومية وغير الحكومية أن تعالج النزاعات على المستوى الدولي. وقد حدد معهد Multi-track الدبلوماسية تسعة قطاعات أو ممارسات مختلفة لممارسة بناء السلم: الحكومة؛ الدين؛ البحث والتدريب؛ التعليم؛ الأعمال؛ التمويل؛ منظمات الإغاثة والتنمية الإنسانية الحكومية منها والخاصة؛ المواطنون الفريديون، الناشطون، وأخيرا الإعلام والاتصالات.

واليوم أصبح من الأمان القول بأن الأفكار والمقاربات المتعلقة ببناء السلم أصبحت تطبق وتتطور على الصعيد الدولي، وأن ميدانها أخذ في التوسع أكثر فأكثر من خلال استكشاف الروابط النظرية والعملية بالميادين الأخرى، مثل التنمية الدولية، وحقوق الإنسان، والبيئة والاتصالات والإعلام والأعمال.

وإحدى الجهات المستكشفة تتعلق أساسا بالفكر الإصلاحي الاجتماعي ومنهج البحث التقديري اللذين انبثقا وسط ميدان التطور المؤسسي وفي ميدان التنمية الدولية بعد ذلك. ويمثل البحث التقديري وغيره من المقاربات الإيجابية في بناء السلم دفعا جديدا نحو وسائل تشدد على بناء السلم، وتشجع ظهور الإمكانيات الإيجابية للتحويل الموجود في جميع الأنظمة الإنسانية.

وسوف نتحول إلى مناقشة بعض الفرضيات والمبادئ الجوهرية في حل النزاعات وبناء السلم والتي ستغذي البحث عن المنهجيات النظرية والعملية في التغيير الإيجابي بشكل عام، وعن عمليات البحث التقديري بشكل خاص.

الفرضيات والمبادئ الأساسية لبناء السلم وفقا لمقاربة البحث التقديري:

أولا: النزاع كمصدر للتغيير: إحدى الفرضيات الأساسية في هذا الحقل، هي أن النزاعات ليست بالضرورة سلبية أو سيئة. فمعظم صناعات الإسلام ينظرون إلى النزاع على أنه يؤدي غالبا إلى تغيير ضروري ولذلك يمكن اعتباره قوة خلاقية تولد خيارات جديدة لحل المشاكل الموجودة. فاختلاف الآراء وتضارب الأهداف والتنافس في المصالح ليست في طبيعتها قوة مدمرة، على الرغم من أنها تقود الأطراف للتورط في أعمال عنف أو غيرها من المسلكيات ضد الأهداف الأخرى.

ثانيا: السيادة الأخلاقية والواقعية لمبدأ اللاعنّف: من المفترض أن تكون الوسائل اللاعنفية ضمن حقل حل النزاعات أكثر فعالية من حيث الأطراف المعادية على تغيير منظوراتها وحل القضايا والمواقفة على إخماد النزاع، من الوسائل التي تستخدم العنف.

ثالثا: التعاون من أجل حل الاختلافات: هناك فرضية أخرى تقول بأن الاختلافات في القيم والمصالح والحاجات يمكن حلها بطريقة مشتركة وتعاونية. وتولد العلاقات التعاونية طاقات وإمكانيات تمكنها من التغلب على الاختلافات عندما لا تنغمس الأطراف المختلفة أو تحدد نفسها مسبقا بنتيجة ربح وخسارة. لذلك يتم تكريس جهد كبير في عمليات حل النزاعات من أجل تصويب الأفكار الخاطئة وكسر القوالب السلبية الجامدة وإعادة تصوير العدو بصورة إنسانية. وعندما تبتعد الأفكار عن حالة العداء والكراهية وتتحول إلى الثقة والرغبة في التعاون، يصبح حل القضايا الأساسية أكثر إمكانية.

رابعا: الناس ليسوا مشاكل: هذه الفرضية التقليدية القائلة بأن الناس ليسوا مشاكل تقف في أساس التفاوض والتوسط، وغيرهما من مقاربات حل النزاعات. ويركز العاملون في هذا الحقل على المشكلة (اختلاف القيم والمصالح والأهداف والحاجات) ويحترمون كأفراد. كما يعيدون تأطير المشكلة على أساس كونها هما متبادلا ومشتركا، على جميع الأطراف أن تسعى معا لمعالجته، ضمن احترام أصيل للأشخاص ولحقوق جميع الأطراف المعنية.

خامسا: الاتصال كوسيلة لتغيير المنظور: رغم انخراط الأطراف المعنية في جدال حول توزيع أو إعادة توزيع الموارد المادية تبقى هناك ضرورة أساسية لتغيير منظوراتهم وبالتالي أنماط اتصالاتهم من أجل حل القضية. فالاتصالات تعتبر قناة رئيسية يمكن من خلالها اكتشاف المشاعر والمنظورات السلبية، ومن ثم إصلاحها أو تعديلها بين الأطراف المعنية. ومن أجل إحداث هذه التغييرات يجب اتباع وسائل اتصال فعالة (الإصغاء النشط، إعادة تركيب العبارات، تفهم عواطف الطرف الآخر..)، بغض النظر عن طبيعة النزاع ونوعيته. مثل هذه العملية تتطلب تكوين بيئة من الأمان والثقة والرغبة في تجشّم المخاطر في التحرك نحو حل النزاع.

سادسا: حل المشاكل بالطرق التعاونية والخلّاقة: يستند حل النزاع إلى أساس أولي هو العمل التعاوني من أجل حل المشاكل، وهو عمل يطمح إلى تحريك الأطراف ذات الاختلافات الحقيقية والمعقولة نحو حلول مشتركة ومقبولة. وبمساعدة طرف ثالث أو بدون مساعدته، يفترض هذا العمل وجود قدرة لدى الأطراف المعنية على حل مشاكلها الخاصة وعلى إيجاد الحلول المرضية للقضايا العالقة. والانتقال من معالجة "الأسباب الجذرية للفشل" بواسطة " شجرة حل المشاكل" ، إلى اكتشاف "شجرة الإمكانيات" وفقا لنظرية البحث التقديري، حيث أن شجرة الإمكانيات نقلت التركيز من المشكلة إلى الإمكانية، ودلّتهم على طريق التحركات المعنية التي يجب القيام بها.

سابعا: بناء علاقات مستدامة: لا يمكن الوصول إلى علاقات مستدامة إلا عندما تقوم الأطراف المتنازعة بمصالحة تاريخها السابق إدراك خلافاتها الحالية والاتفاق على رؤية مستقبلية للحفاظ على العلاقة. واستدامة التسويات في حل الخلافات تتطلب من هذا الحل أو الحلول توفير آليات للأطراف المتنازعة من أجل خلافاتهم ونزاعاتهم المستقبلية بشكل سلمي عبر مفاوضات واتفاقات متبادلة. وحين يتم إصلاح العلاقة الممزقة، تبرز أنواع جديدة من العلاقات بين الأطراف،

تقوم على اساس احترام لحقوق الأفراد والجماعات إدراك استقلالية الروابط التي تربط بينهم. مثل هذا الامر يضمن عدم تصعيد الخلافات في المستقبل إلى درجة النزاع المسلح، كما يضمن حل هذه لنزاعات بطرق ترضي الطرفين.

ثامنا: إيجاد عناصر تغيير: تفترض عمليات بناء السلم بأن التغيير في الناس والعلاقات والأنظمة، هو شيء ممكن وضروري من أجل حل النزاعات، لذلك يعتبر تجهيز المتنازعين ليصبحوا عناصر تغيير، مبدأ مركزيا في هذا الحقل.

تاسعا: تحويل علاقات القوة: تهدف عمليات بناء السلم وحل النزاعات إلى أحداث تغيير في علاقات القوة الموجودة داخل المجتمع أو بين الأطراف المتنازعة من خلال تحويل التحركات المدمرة التي يقف وراءها مبدأ هيمنة القوة إلى علاقات بناءة متوازنة تعزز وضع جميع الأطراف.

إن تعزيز المهمشين والمحرومين ومنح الصوت للذين لا صوت لهم، هما أمران يمكنهما إطلاق طاقة هائلة للتغيير والتحول من طرف الأفراد أو المجتمعات كما أنهما أساسيان في استدامة السلم.

عاشرا: التحرك والتنمية: في العديد من الأوضاع، تشكل التنمية الاقتصادية وتحسين الأحوال المعيشية أمورا أساسية قد تتطلب مختلف أنواع التأييد والنشاط الاجتماعي من أجل تحقيقها. مثل هذه النتائج تؤمن سير عمليات حل النزاعات كجزء أساسي من عمليات التغيير الأكبر في المجالات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية في المجتمع، مقابل أن تصبح فقط اليات للحفاظ على الوضع الراهن وعلى علاقات النفوذ والقوة الحالية.

وعلى وجه مشابه يسعى صانعو السلم إلى تحديد فترات من التعاون وسط الصعید الأوسع من علاقات النزاع وتضخيم حجم هذه الفترات من أجل إظهار إمكانية العلاقة الإيجابية بين الأطراف المتنازعة وغرس الأمل والدافع نحو التغيير. إن التعاون والاحتراف بفترات، رغم كونها قليلة العدد أو ضئيلة الحجم إلا أنها بإمكانها أن تكون فعالة جدا في إطلاق طاقة إيجابية بين الأطراف المتنازعة وتعزيز عملية بناء السلم. كذلك تعتبر ممارسات أخرى مثل إعادة بعث التعاطف مع الآخرين، وإظهار وجههم الإنساني، واستخدام الروايات لنقل المعاني الشاملة وتغذية الرعاية والترابط بين الأطراف، أداة أساسية في عملية بناء السلم من أجل إظهار الإنسانية في الآخرين ورفع المعاناة، ودفعهم لاتخاذ إجراءات ملموسة من أجل تحويل حقائق النزاع.

كذلك يستخدم صناع السلم الطقوس التي تحدث ظواهر التفاعل العاطفي المفهوم من أجل غرس المعنى والحياة **وأشكال** جديدة من التجارب المشتركة في نظام مختل العلاقات، مثل الولائم المشتركة والموسيقى والرقص والرياضة، يمكن استخدامها من قبل صانعي السلم للتأثير على اللقاءات بين الإثنيات.

معظم عمليات بناء السلم تفترض أن "العلاج هو في الألم" وأنه يجب إعطاء الفرصة للمتنازعين لكي يستذكروا معاناتهم وينفسوا عن أوجاعهم وعن مشاعرهم السلبية معا في جو آمن وبيئة آمنة من أجل أن يصلوا إلى تفهم وإعادة صياغة ذكرياتهم بشكل مختلف، يتوجب على صانعي السلم سواء مباشرة بعد هذه التجربة أو تزامنا معها، إدخال نشاطات تتعلق ببناء الثقة وفرض علاقات إيجابية عبر الألعاب أو الفكاهة أو الفن أو الموسيقى أو غيرها من نشاطات التسلية وتخفيف عبء التجارب.

كذلك تعمل عمليات بناء السلم على غرس الأمل ومساعدة الأطراف المتنازعة على وضع رؤية جديدة لمستقبل العلاقات، إيجاد رؤية مشتركة لمجتمع مسالم في الإقليم، وتشمل تفاصيل كاملة متعلقة بأدوار ووظائف آليات مجتمع الدولة والمجتمع المدني والشرطة والقضاء والطقوس التقليدية الحضارية والقطاع المدني في تعزيز السلم.

يرتبط بناء السلم بأحداث تغيير في العلاقات الإنسانية والمؤسسات، فالعديد من وسائل ومقاربات بناء السلم تبحث عن القوى الإيجابية المانحة للحياة داخل كل نزاع من أجل تمكين الناس العالقين وسط دائرة العنف من رؤية الاحتمالات الموجودة في مستقبل مختلف. وتقوم هذه المقاربات على فرضيات بوجود مصادر للطاقة بإمكانات للإبداع

والتراحم والأمل والتخيل والتحول داخل النظام الإنساني- الناس، العلاقات، الجماعات، والمجتمعات- والتي إذا ما تم إيقاظها، يمكنها أن تشكل قوة محركة ودافعة للتغيير، وتنطلق فرضيتنا من أن الناس حين يدركون الحقيقة المرعبة للحرب، يعمدون لكونهم بشرا عقلانيين إلى تجنب العنف واختيار البدائل السلمية. كذلك إذا تعلموا كيف ينظرون إلى أنفسهم كعناصر للتغيير الإيجابي بدلا من كونهم ضحايا لا حول لهم ولا قوة.

ويشدد هذا الفصل على حقيقة أن صناع السلام يمكنهم أن يكونوا أكثر فعالية في إحداث التغيير، إذا استطاعوا دمج العناصر والعمليات والمقاربات الإيجابية ضمن ممارساتهم الحالية، لأن مثل هذه الأنواع من المقاربات، يمكن للأطراف المتنازعة أن تشعر بحريتها وقدرتها على الارتباط ببعضها البعض وإدراك إمكانية قيامه بدور في تغيير النظام. والتحدي الذي يواجه صناع السلام يجب أن يتناغم باستمرار مع العناصر الإيجابية الموجودة ضمن سياق عملياتهم على أن يستمروا في تقييمها وتفعيلها.

كذلك بعيدا عن هذه المقاربة التدريجية، يحتاج الأمر إلى وضع إطار للمقاربات الإيجابية في بناء السلم، وما يبقى هو الحاجة لتطوير الاستراتيجيات والوسائل من أجل تحقيق دمج منهجي وشمولي لمبادئ وممارسات التغيير الإيجابي في جميع نواحي عملية بناء السلم، بما فيها عمليات التدريب والتعليم.